

الفصل الثانی

الضمير — الضمير والإرادة — تربية الضمير

يلاحظ الانسان أن في أعماق نفسه قوة تحذره فعل الشر إذا أُغْرِى به ، وتحاول أن تمنعه من فعله ، فإذا هو أصرّ على عمله أحس بانقباض نفسه أثناء العمل لعصيانه تلك القوة ، حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به ، وبدأ يندم على ما فعل ، كالطالب يحاول الغش في الامتحان فيحس صوتا باطنيا يناديه ألا يفعل ، فإذا لم يسمع لهذا الصوت وبدأ يغش أحس أن هذه القوة تثبطه ، فإذا استمر في عمله أثبتته وندم وعزم ألا يعود .

كذلك يحس أن هذه القوة تأمره بفعل الواجب ، فإذا بدأ في عمله شجعت على الاستمرار فيه ، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور ، ورفعة نفسه وعظمتها ، كالطالب يرى آخر مشرفا على الفرق فينقذه ، فحين إنقاذه يشعر بتشجيع نفسه على المضى في عمله فإذا أتم ذلك شعر بغبطة وسعادة .

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى « الضمير » ، وهى — كما رأيت — تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالإرشاد الى عمل الواجب ، والنهى عن الرذيلة ، وتقارنه بالتشجيع على الخير ، والتثبيط عن الشر ، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة والشعور بالألم والوخز عند العصيان .

هذا الضمير نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة ، نرى البائس الفقير يحمد مالا أو متاعا وهو أشد ما يكون حاجة الى مثله ، ولم يكن رآه أحد إلا ربه ، ثم هو يتعفف عنه ويؤذيه الى صاحبه ، فما الذى حمله على ذلك ؟ لاشئ إلا الضمير يأمر صاحبه بعمل الواجب لا لمثوبة ولا عقوبة إلا لمثوبة نفسه بارتياحها ، وعقوبة نفسه بالندم والتأنيب .

وهذا الضمير طبعى حتى فى الحيوانات الراقية ، فنرى الكلب مثلا عنده نوع إدراك طبعى للواجب ، ويرق هذا الإدراك بمخالطته للانسان ، حتى نراه أحيانا يفعل فى الخفاء جرما كأن يسرق شيئا من سيده ، أو يخالفه فى أمر أمره به ، فيظهر على الكلب حينئذ نوع من الاضطراب والقلق بعد جرثومة للضمير .

ونلاحظ كذلك جرثومة الضمير في الطفل الصغير ، يعلوه
 النجل أحيانا خطأ ارتكبه فتبينه في نظراته ، ويدلنا اضطرابه
 وقلقه على أنه ارتكب خطأ — وينمو هذا الشعور بنمو الانسان
 حتى يصل به الى حد أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدى الواجب ،
 ويدوب أسفا وندما اذا عصى أمر الضمير ، وهذا الشعور تجده
 يتبع حالة الانسان ، فهو في حالة سذاجة عند المتوحش ، كشأنه
 في حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية ، فإذا رقى الإنسان رقى ضميره ،
 حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعا عن رأيه أو في سبيل إصلاح
 قومه .

اختلاف الضمير — ليس الضمير هاديا معصوما يأمر
 بالخير دائما ، وينهى عن الشر دائما ، ولا هو يأمر الأفراد في الأمم
 المختلفة أوامر واحدة متساوية في القوة ، فإننا نرى أن الأمة التي
 تقدر النظام في الحياة تقديرا كبيرا يكون أبنائها أشد إحساسا به ،
 وضمائرهم أقوى في المطالبة باتباعه ، وعلى العكس من ذلك الأمة
 التي لا تؤمن بفضيلة النظام هذا الايمان .

وأفراد الأمة التي لا تسترذل الكسل لدرجة كبيرة لا يؤنبهم
 ضميرهم تأنيبا شديدا اذا استسلموا للكسل .

بل الأمة الواحدة يختلف ما يأمر به ضميرها باختلاف العصور، فقد رأينا مثلاً منذ سنين قلائل أن كثيراً من المصريين كانوا يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والأقباط، وتستحثهم ضمائرهم على الدعوة إلى ذلك، ويرتاح كل فريق بما يلقي من الخطب، ويكتب من المقالات، في تأييد فريقه والطمع على الفريق الآخر، واليوم نرى أن هذه الدعوة من أكبر الجرائم وأعظم الشرور، ولا تطاوعنا ضمائرنا إذا أردنا أن نمس هذه الوحدة بسوء.

بل الفرد الواحد قد يأمره ضميره بشيء في زمن ويأمره بعكس ذلك في زمن آخر، كالطالب يأمره ضميره أن ينهمك في القراءة والدرس من غير أن يراعى جسمه وصحته، فإذا درس قانون الصحة أو شعر بمرض فهم أن لجسمه عليه حقاً ولعقله عليه حقاً، وطالبه ضميره بأن يراعى صحته وعقله جميعاً.

والسبب في اختلاف أوامره أن الضمير يتأثر بعاملين كبيرين.

فيتأثر (أولاً) بالحالة الاجتماعية للأمة وعرفها ودرجة رقيها، فالإنسان ينشأ في أسرة تستحسن أعمالاً وتستقبح أخرى فيتبعها في استحسانها واستقبحاتها، ثم هو إذا خرج إلى الحياة العامة تبادل مع الناس الأخذ والعطاء فيلتقط آراءهم في الخير والشر، ويقلدهم

في ذلك، ويسأروهم فيما يستحسنون وما يستقبحون، وبأمره ضميره
أن يفعل كما يفعلون .

(ثانياً) يتأثر ضمير كل إنسان بدرجة عقله وعلمه، فكما
زاد علم الإنسان ونما عقله ارتقى ضميره، ذلك أن الخبرة والتجربة
ومعرفته بنتاج الأشياء النافعة والضارة توسع عقله، فيتمتع ذلك
ارتقاء ضميره، حتى قد يأمره ضميره بعد هذه التجارب بما كان
ينهاه عنه من قبل، وينهاه عما كان يأمره به، لأن عقله عرّف
من الحقائق ما كان يجهله، بل هو إذا وصل إلى درجة كبيرة من
رفق العقل كان ضميره نابعاً لعقله أكثر من تبعيته لتقاليد قومه،
وأستطاع — إذا هو ورزق وسائل الرغامة — أن يغير ما يستنكره
من عادات قومه .



ومع أن الضمير يختلف باختلاف الأمم وأختلاف العصور
وأنه قد يخطئ أحيانا في أمره ونهيه — كما رأيت — فإن كل
إنسان ملزم باطاعة ضميره، لأنه مأمور بعمل ما يعتقد أنه الحق
لا بعمل ما هو حق في الواقع، فالذي يعتقد شيئا حقا وبأمره
ضميره بعمله ملزم أن يطيعه، وليس هناك مسئولية أخلاقية عليه
إذا تبين خطأ ما أمره به ضميره، غاية الأمر أنه يجب عليه أن

يضىء السبيل أمام ضميره بتوسيع عقله وتقوية فكره وتحزبه الصواب، فإن هو فعل ذلك كان الضمير هادياً مرشداً، وكان له العذر إذا تبين خطأ ما أمر به ضميره .

الضمير والإرادة — لا قيمة للضمير يأمر وينهى إذا لم يُدعم بإرادة تنفذ أمره ونهيه ، فقد يشعر الإنسان بالواجب ويتأكد من أنه واجب ويأمره ضميره به ولكن يذهب كل ذلك هباء إذا لم يُمنح إرادة قوية تُخرج هذا الأمر الى الوجود، فالإرادة هى القوة الفاعلة فى الإنسان وبدونها تكون أوامر الضمير أحلاماً وأمانى لا قيمة لها، ولذلك يقول بعضهم : ” إن جهنم مرصوفة بالأمانى الطيبة“ يريد بذلك أن الأمانى الطيبة إذا لم تبرزها الإرادة الى الوجود فأولى بها الجحيم لا الجنة، إنما يصالح للجنة الأمانى الطيبة التى حولتها الإرادة الى عمل ويقول الشاعر العربى :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولاً
قد تعترض أمام ما يأمر به الضمير عقبات ، فالإرادة القوية

تذللها وتشعر بارتياح من تذليلها والتغلب عليها .

وكما نحتاج الى الإرادة فى تنفيذ أوامر الضمير نحتاج اليها فى تنفيذ نهيه ، وذلك بمقاومة الميل الى الشر وصدّه والوقوف فى سبيله حتى لا يخرج الى الوجود .

والإرادة القوية سر النجاح في الحياة — وفضائل الإنسان وملكاته تظل في سبات حتى توقظها الإرادة، فمهارة الصانع، وقوة عقل المفكر، والشعور بالواجب ومعرفة ما ينبغي وما لا ينبغي، كل هذا لا أثر له في الحياة ما لم تحوِّله قوة الإرادة إلى عمل .

تربية الضمير — الضمير — ككل ملكات الإنسان وقواه — تنمو بالتربية وتضعف بالإهمال ، فبعضيان الضمير يضعف أو يموت، شأنه في ذلك شأن أديب يتذوق الشعر والأدب، فإذا هو أهمل قراءة الأدب وأشتغل « بالرياضة » ضعف ذوقه الأدبي حتى قد يصل إلى درجة لا يدرك معها ما في الأدب من جمال ، كذلك يعصى الإنسان ضميره مرة فيحس بالذع شديد من جراء عصيانه ، فإذا تكرر منه العصيان أحس بالذع دون ما كان يشعر به عند أول مخالفة ، ولا يزال الإنسان يتبع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأي نوع من اللوم والتأنيب ، لأن صوت ضميره قد خفتَ وسلطانه قد ضعف — وكما يضعف الضمير بالعصيان يضعف بصحبة الأشرار وإطالة القراءة في الكتب الساقطة ، فكلا الأمرين يكرر منظر الشر أمام النفس حتى تعتاده ، وكلاهما يتحدث عن الشر حديث المستحسن فيتخدر الضمير ويخمد صوته .

ويجبا الضمير بمداومة طاعته ، وباستخدام الارادة في تنفيذ أمره ونهيه وصحبة الأخيار وقراءة الكتب التي تدعو الى الفضيلة ، ومما يساعد على نموه قوانين البلاد ، فإنها ان كانت صالحة شاركت الأخلاق في الأمر بالخير ، فتساعد على حياة الضمير وتزيد في سلطانه .

خير شيء في الإنسان ضميره ، فهو "الدليل" الذي يهdy سبيل السلام .